

ورقة قدمت في المؤتمر الدولي الثاني والاربعين لدراسات العصور الوسطى، والذي عقد في جامعة ميشيغان الغربية ٢٠٠٧



عندما بدأت البحث عن معلومات تدور حول الغزو المغولي لبغداد ، وجدت بالمصادفة حساب لكاظم عراقي من فترة أوائل القرن الرابع عشر . وكنت سعيداً بعثوري على موضوع ذات صلة بالأمر وبدأت بقراءة ذلك الموضوع .لخص الكاتب الحصار وسقوط بغداد بتلك الكلمات : "حتى إن ذكر هذا الموضوع باختصار سيكون مروعاً لأن تسمعه ... أي أن كم هو سيء اختصار ذلك الموضوع بالتفصيل ! حدثت أشياء لن أذكرها، تخيلها ولا تسأل عن وصف !"

وبالرغم من تلك البداية التي لا تعد بشيء، وجدت فيضاً من المعلومات بعد ذلك و بوقت ليس بالبعيد وكانت مصدر تلك المعلومات كتاب معاصرين أو مؤرخين ، وبضمنهم أولئك الذين شهدوا الحدث. لستين

مضت كنت اجمع هذه القصة مع بعضها ،ليس لان قصة اول غزو لبغداد شيء مثير للاهتمام ولكن لأنها تضيف بعض الرؤى الى الوضع الحالي في العراق.

بالرغم من أهمية الحدث التاريخي، إلا أن المؤرخين لم يسردوا قصة سقوط بغداد كما يجب. اظهر معظم المؤرخين المسلمين التعاون المزعوم بين الشيعة والمغول ضد الخليفة العباسي السني اكثر من إظهارهم أي شيء آخر، بينما ركز المؤرخون الغربيون دائماً على اشد القصص عنفاً والمرتبطة بالغزو، مكررين دوما الادعاءات الجامحة بان المغول قتلوا الملايين ودمروا بغداد تدميراً كاملاً .

يحول قصر الوقت هنا بين وبين أن أقول كل شيء أود قوله ، ولهذا السبب سأختصر في الحديث في بعض الأقسام . وأتأمل بان يكون لدى معظمكم نشرتي التي تبين الأحداث وتغطي بعض المقتطفات التاريخية . وسابن لكم من خلال جهاز العرض مادتين لتبين بعض خرائط العراق في حال وجد أي شخص غير مطلع على هذا البلد .

سأتحدث أولاً عن وضع الخلافة العباسية في أواسط القرن الثالث عشر و التي شهدت بذلك الوقت اياماً افضل من الايام التي ستعقبها حيث استنزفت المكائد السياسية والحروب الاهلية و الحكومات الفقيرة عموماً قوة وعظمة الخلفاء وسيطر العباسيون على منطقة كانت محدودة وهي وسط وجنوب العراق حالياً .

كان لمدينة بغداد نصيبها من الصعوبات في تلك الاثناء .فالمؤرخون ربطوا بين الفيضانات والحرائق الكثيرة التي دمرت بغداد والعنف الطائفي والمدني بين سكانها حيث زار مسلم من اسبانيا المدينة في عام ١١٥٨ ومن الواضح انه مني بخيبة امل مما رآه ،ووصفها قائلاً " ان المدينة كخراب لا اثر فيه وما تبقى تم جرفه او دعنا نقول انها تمثال لشبح .لا يوجد مايجذب الانظار ويستدعي ترك العمل والتأمل فيها " .

تولى المستعصم الخلافة في عام ١٢٤٢ دون ان يعلم بأنه سيكون اخر الخلفاء العباسيين ،و كل المؤرخين المعاصرين له كانوا يشعرون بالازدراء ازاءه ،ووصفه احد الكتاب انه " كان متفرغاً للتسليية واللهو ،مكرساً وقته للعب مع الطيور ومشغولاً بالنساء ،ولا يمتلك البصيرة في الحكم ،ومتذبذب و مهملاً لكل ما هو مطلوب منه لادارة سدة الحكم " ووصفه مؤرخ اخر " انه لم يكن مناسباً للمنصب والعظمة بل كانا اكبر منه بكثير " .

ولم تكن حاشية الخليفة افضل منه بكثير ،كما تم وصفها بانها حفنة من المتأمرين الذين قضوا وقتهم في محاربة بعضهم البعض ،وضمت تلك المجموعة الوزير الذي كان شيعياً وتزديريه بقية الحاشية التي يهemin عليها السنة .وكان قائد جيش الخليفة المسمى بـ دواتدار والذي كان يطمح الى انتزاع السلطة لنفسه .

في صيف ١٢٥٦ ، ضرب فيضان قوي مدينة بغداد عقب أمطار غزيرة ادت إلى ارتفاع منسوب نهر دجلة و تزامن هذا الفيضان مع الحملة المغولية في ايران ،واشتعل العنف الطائفي وعمت الفوضى بين السنة والشيعة قبل ان تنحسر المياه حيث قاد احد ابناء الخليفة مجموعة من الجنود الى جوار مدينة الكرخ وذبحوا عدداً كبيراً من الشيعة الذين يسكنون هناك ،فحمى الوزير مئات من ابناء مذهبه بجعلهم يسكنون قصره .ويدعي المؤرخون السنة بان تلك الحادثة كانت السبب الذي ادى بالوزير لان يساند المغول سراً فيما بعد .

كانت الدولة العباسية تسير نحو الانحدار بينما تزداد هيمنة المغول اكثر من اي وقت مضى .كان مونكو خان حاكمهم في تلك الفترة يعد خطته لغزو العالم وكان العراق وبقية الشرق الاوسط من ضمن

اهدافه .هددت الجيوش المغولية بغداد منذ بداية القرن الثالث عشر، ولكن لم تقم باي تحرك جاد ضد المدينة .واظهر الخليفة العباسي الطاعة والرضوخ للمغول قبل عام ١٢٥٤ الا ان مونكو خان كان يتطلع الى سيطرة مباشرة على المنطقة، وجعل اخاه هولوكو يقود مائتي الف من الرجال وامرهم بان يهيمنوا على كل الشرق الاوسط الى نهر النيل . وقال احد المؤرخين بان مونكو خان تحدث الى اخيه قائلاً:"ان خرج الخليفة لالقاء التحية ضايقه باية شكل من الاشكال. فان كان فخوراً وقلبه ولسانه ليس واحداً اجعله يلحق بالآخرين "وماكان يقصده هو تدميرهم .

نظم هولوكو حملته على الشرق الاوسط في عام ١٢٥٤ و توجه ببطىء مع جيشه الجرار وخيوله التي لاتحصى ومروا بافغانستان وايران ،وخضع له معظم حكام المنطقة ولكن الاسماعيليين في شمال ايران قاوموه . ودمر المغول الاسماعيليين بنهاية عام ١٢٥٦ ووصلوا الى حدود الدولة العباسية .

وارسل هولوكو في وقت سابق اوامر للمستعصم بان يمدد بالقوات لمساعدته في ضرب الاسماعيليين ولم يمثل الخليفة للاوامر مما اعطى هولوكو الذريعة التي يحتاجها لغزو العراق ،ولكن قبل أن يبدأ حملته ارسل مبعوثين ورسائل ليحث الخليفة العباسي على الاستسلام ،قدموا الى بغداد ومعهم تهديد ينص على : " عندما اقود جنودي الى بغداد، حتى لو كنت مختبأ في السماء او تحت الارض لن اترك شخص على قيد الحياة في ارضك ،ساحرق مدينتك وارضك " .

وكان الخليفة جاهزا في اجابته البلاغية : " يمكنك ان تاتي باستراتيجية وقوات ووهق ١ ،ولكن كيف يمكنك أن تمسك بالنجم ؟ الا يعرف الامير هولوكو بانه كل من يخاف الله ويعبده من الشرق الى الغرب ومن الملك الى الفقير ومن الكبير الى الصغير بانهم خادمين للخلافة وجنود في جيشي ؟"

وتمكن الوزير من التحدث إلى المستعصم في محاولة منه للتودد من اجل السلام ،ولكن لم يقبل داوتدار ولا بقية اعضاء الحاشية بتقديم اي تنازلات وبدأ الخليفة بتجهيز قواته. وتم التعاقد مع الجيش الكردي للدفاع عن بغداد ولكن بعد شهور قليلة قرر الخليفة أن لا يدفع لهم أموال وبذلك غادروا، وتم بذل الجهود لزيادة عدد المتطوعين من سوريا ومصر للقتال من اجل الجهاد ولكن لم يتحقق شيء يذكر .

وبدأ هولوكو بالاعداد والتحضير وشمل ذلك تهيئة تحالف للامم والذي يضم الارمن والجورجيين لمساندة المغول،وهو بالكاد يطلق عليه تحالف لأنهم أدركوا بان التصدي لهولوكو يعني بانهم سيصبحوا الهدف التالي له.وكان ليدر الدين لؤلؤ ، حاكم الموصل دور مهم وهو الذي اقسم بالولاء لكل من المغول والعباسيين ومع اندلاع الحرب كان عليه أن يقرر لأي جانب من كلا الجانبين ينتمي ،و دون كاتب في ذلك الوقت بان المغول ارسلوا له مبعوث كما ارسل العباسيين له آخر من بغداد . طلب المغول منه مقاليع 2 ومعدات للحصار بينما الخليفة العباسي ارسل في طلب فرقة موسيقية الى بغداد.التفت لؤلؤ الى اتباعه بعد ان سمع المبعوثين وقال " انظروا إلى الطلبين وابكوا الإسلام والمسلمين!"

وانطلق المغول من غربي ايران في تشرين الثاني عام ١٢٥٧، أن حجم جيش هولوكو كان كبيرا بكل المقاييس، وقاد القائد المغولي ١٥ إلى ١٧ تومين، وهي وحدات تتكون نظرياً من ١٠,٠٠٠ رجل، أي بمعنى أن جيشه يتكون من ١٥٠,٠٠٠ جندي، إضافة إلى عدد مساوي له ممن يساعده من الأرمينيين واليرانيين ليصل العدد إلى ما يقارب ٣٠٠,٠٠٠ من الرجال للغزو ،ولم يشارك كل الجيش المغولي بطبيعة الحال بذلك الغزو لانهم ظلوا يحمون المناطق التي يهمنون عليها ولكن بعض المؤرخين ذكروا بان جيش المغول تكون من ٢٠٠,٠٠٠ جندي للقيام بذلك الغزو.

كان الغزو المغولي للعراق بأشكال عديدة وصف كتاب لحرب المغول ،وتم تقسيم جيش المغول الكبير الى عدة مجموعات ،كل مجموعة من تلك المجموعات تحركت بسرعة وتوجهت إلى بغداد من اتجاه مختلف

مما أدى إلى إرباك المدافعين العراقيين لأنهم لم يعرفوا من أي اتجاه كان يأتي الجيش المغولي. أما الجيش العباسي كان بقيادة داوتدار والذي تمركز في بادئ الأمر في مدينة بعقوبة شرق بغداد ولكن الجيش تلقى أوامر بالعودة إلى المدينة وحماية الجزء الغربي عندما علموا أن بعض القوات المغولية عبروا عبر جسر مؤقتاً فوق نهر الفرات قرب مدينة تكريت .

وواجه الجيش العراقي مجموعة من قوات المغول في الحادي عشر من كانون الثاني في مدينة الأنبار والتي تبعد ٣٠ ميل باتجاه الشمال الغربي لمدينة بغداد ، وهزم الجيش العباسي هذه المجموعة وقرر عدم المضي قدماً، بل بقي الجيش العباسي في نفس المكان وأقام احتفالاً قدم فيه الطعام و الشراب ،وأضاف مؤرخ ارميني بأن داواتدار ارسل رسالاً إلى الخليفة ليوصل له رسالة يقول فيها "هزمتهم كلهم وغدا سأنهي من نجى منهم".

بيد أن القوات المغولية التي هزمها الجيش هي قوات استطلاع صغيرة تم إرسالها لتستطلع وتجلب معلومات عن الجيش العباسي، ووصلت القوات الرئيسية قبل نهاية اليوم وعندما حل المساء أحاط المغول بالقوات العراقية ودمروا العديد من السدود والقنوات ووجد داوتدار وجنوده انفسهم في ورطة عندما نهضوا في اليوم التالي لان المياه أغرقت كل ما يحيط بهم .

هاجم المغول بقوتهم القصوى ومني الجيش العباسي بهزيمة منكرة. وذكر احد المؤرخين بان هذه المعركة أودت بحياة ١٢,٠٠٠ من الجنود العراقيين أما بقتلهم أو غرقهم و اورد مؤرخ آخر بانه ثلاثة رجال من الجيش بأكمله بضمنهم داوتدار تمكنوا من العودة إلى بغداد .

ولم يتم تسجيل أي محاولة اخرى للاشتباك مع المغول بعد هزيمة داوتدار قبل أن يصلوا الى بغداد بل ان تحضيرات اجريت للاستعداد بتهيئة الدفاعات مثل المقاليع والات الحصار الاخرى ،وقدر مصدر انه ٨٠,٠٠٠ رجل كانوا يدافعون عن المدينة.

واحتشد عشرات الالاف من اللاجئين في مدينة بغداد في محاولة لضمان التقدم قبل الجيش المغولي لتسيير الامور نحو الأسوء ،وبذلك تقلصت الإمدادات الغذائية في المدينة وأصبحت طرقها مزدحمة ومليئة بالقمامة بعد وصول كل هذه الجموع المعوزة إليها .

اقرب هولاء من مشارف بغداد في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٢٥٨ ، وأحاط المغول المدينة وبنوا جسور عائمة على نهر دجلة باستخدام القوارب التي استولوا عليها، و لم يهاجم المغول بغداد مباشرة وإنما قضوا يوم وليلة في بناء جدارهم حول المدينة بأكملها، وحفروا خندق أمام هذا الحائط وملأوا اجزاءً منه بالماء لحمايتهم ووضعوا أكواماً من الطابوق والانقاض خلف جدرانهم وفوق تلك الاكوام وضعوا الات الحصار والتي تشمل المقاليع و رماة النافثا .

حاول الخليفة بان يحصل على هدنة كمحاولة أخيرة منه بينما أتم المغول استعداداتهم، وارسل وزيره وبطريقك المسيح في بغداد إلى هولاء ومعهم بعض الهدايا، وقابلوا قائد المغول ولكن الجهود لم تسفر عن اي اتفاق وبدأ المغول هجومهم على بغداد في التاسع والعشرين من كانون الثاني .

وسقط الجزء الغربي من بغداد والذي لم يكن له أسوار في أول يوم من القتال وفقاً لمصدر صيني. أن الشيعة الذين يسكنون في المناطق المجاورة لمدينة بغداد مثل الكرخ قد رحبوا بالمغول بدل من أن يقاتلونهم، حتى وان لم يرحبوا فانهم لم يحموا مناطقهم ويقاومونهم، وركز هولاء في هجومه بواسطة الات الحصار على برج العجمي الذي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة. وقطع المغول أشجار النخيل ورشقوها على المدينة بالمقاليع وذلك لقلّة الأحجار المناسبة حول مدينة بغداد، وتحطم

برج العجمي في الأول من شباط أي بعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم المغولي. وحاول المغول أن ينقضوا على الجدران حالما سقط البرج ولكن المدافعين قاوموهم .

كان للمغول أيضاً كنية ليكتبوا رسائل إلى سكان بغداد حيث قام المغول بتثبيت تلك الرسائل فيما بعد بالسهم وإطلاقها إلى داخل المدينة، وكانت هذه الرسائل تنص على وعودا بعدم ايداء الشيعة والمسيح واليهود والتجار والعلماء وأي شخص آخر لم يتورط في قتالهم .

وقاد داوتدار جنوداً يصل عددهم إلى عشرة الاف رجل في سفن وأبحروا إلى الأسفل عبر نهر دجلة في الاول من شباط، قد تكون تلك محاولة للهرب او للذهاب بعيدا عن موقع المغول ومهاجمتهم من الخلف، وابتد بعض التقارير رأيها حول هذا الموضوع بان الخليفة كان مع داوتدار بعد أن اقتنعوا بضرورة الفرار من المدينة ،ولكن الاستعدادات والتدابير التي اتخذها المغول على طول النهر لمنع اي محاولة من هذا النوع حالت دون حدوث هذا الشيء ونتجة ذلك تم مهاجمة الاسطول العراقي بالمقاليع والسهم والنافثا، واجبر ذلك الهجوم داوتدار على العودة إلى بغداد تاركاً ثلاثة من سفنه ليستولي عليها المغول .

وأمر هولوكو بعد ذلك الحدث بيومين بضرورة السيطرة على أسوار بغداد، وأشار مؤرخ جورجي بفخر ان مواطنيه قادوا هذا الهجوم. وتمكن الجورجيون وبقية جنود المغول من تجاوز الأسوار التي تحيط ببرج العجمي بعد وقت قصير من شروق الشمس، ولكن بقية الاقسام من جيش المغول سيطروا على الأماكن التي تخصهم من السور بصعوبة ولم تكن تلك السيطرة ممكنة قبل حلول الظلام فحصل المغول على أسوار المدينة ،وبالرغم من ذلك فان القتال لم يستغرق اكثر من ستة أيام .



وقام هولوكو بشيء مثير للاهتمام عند سيطرته على أسوار بغداد وهو الجلوس مع جنوده عند الأسوار، ولم يحاول الدخول إلى المدينة ،قد يكون ذلك بسبب خشيتهم من الدخول في قتال داخل شوارع المدينة المزدحمة وحينها ستكون الخسائر مرتفعة . وقال هولوكو "يستطيع الخليفة أن يفعل ما يشاء. إذا أراد الخروج فليخرج وإذا لم يريد فليبقى، ولكن القوات المغولية ستبقى عند أسوار بغداد حتى يخرجوا " .

ويبدو من الواضح بان المقاومة التي تدافع عن بغداد بدأت بالانهيار بينما استمر القتال لبضعة أيام ،وتركت مجموعات من الجنود والمدنيين والحاشية مدينة بغداد لتستسلم ، فضمن بعضهم العفو و تم

حرمان البعض الاخر من ذلك العفو وتم إعدامهم، وحاول داوتدار نفسه أن يستسلم واعيد إلى المدينة ليقنع المقاتلين بان يتوقفوا عن القتال وعاد إلى معسكر المغول في اليوم التالي فأعدموه ،وارسل المغول برأسه الى الموصل كتذكير بسيط للؤلؤ ليكف عن تلوؤه ويرسل رجاله إلى بغداد ،وبقي الخليفة في قصره مترددا عن ما يجب فعله ،ولكن الوزير اقنعه بانها الفرصة الوحيدة لاستسلامه ومن المؤمل ان يعطي المغول الفرصة له بأن يحكم المدينة .

وخرج الخليفة من بغداد مع عائلته وثلاثة آلاف شخص من أفراد حاشيته في العاشر من شباط ،واستسلم للمغول، والتقى بعدها بهولاكو والذي لم يبدي غضبا تجاهه بل سأله عن صحته، وطلب منه " بأن يتحدث إلى الناس ليلقوا بالسلاح ويخرجوا وبذلك يمكن ان يأخذ هذا الشيء بنظر الاعتبار " ، ووافق الخليفة وبعد ذلك بوقت قصير زحف ما تبقى من المدافعين عن المدينة الذين يقدر عددهم بالآف و تخلوا عن السلاح، فسحب المغول سيوفهم وهاجموا الجنود العزل، ولم يستثنى احد من ذلك وظل الخليفة ينظر إلى هذا المشهد مراقباً المواطنين العزل من السلاح وهم يذبجون ،بكى وندم على انه لم يستمر في القتال وقال محدثاً نفسه " نجح عدوي ووقعت في المصيدة كعصفور ذكي صغير" .

واصبح من السهل على المغول أن يسيطروا على بغداد طالما أن الجيش تم تدميره، وأمر هولاكو جنوده أن يدخلوا إلى المدينة في الثالث عشر من شباط، وتتفق جميع مصادرنا الرئيسية أن سلب وتدمير بغداد استمر سبعة أيام، ولكن من الصعب أن نعرف أكثر عن الدمار الذي حل بالمدينة ،وعلى سبيل المثال فان هناك قدراً كبيراً من الاختلاف بين المصادر فيما يخص عدد السكان الذين تم قتلهم ، وأشار المؤرخ السوري المسيحي بار هيبروس بضبايية إلى ذلك الشيء ولم يحدد العدد "أن عشرات الآلاف " تم قتلهم ،وقدر مصدر صيني عدد الضائير بمائة ألف عندما سقط الجانب الشرقي لمدينة بغداد ،ومع مرور الزمن أصبحت تلك الأعداد مبالغاً فيها إلى درجة كبيرة، وبدا هولاكو نفسه بالحديث عن هذا الشيء في رسالة كتبها عام ١٢٦٢ عندما تفاخر قائلاً بانه على الأقل ٢٠٠,٠٠٠ شخص تم قتلهم ووضع كتاب القرن الرابع عشر حصيلة الضحايا التي بلغت ٨٠٠,٠٠٠ قتيل، وكتب مؤرخ عربي في القرن الخامس عشر بانه " استمرت المذبحة لأربعين يوماً إلى أن وصل عدد الضحايا إلى أكثر من مليون ولم يتمكن أي شخص من الفرار من القتل والذبح إلا من اختبأ بالآبار والكهوف تحت الأرض ،"وبنهاية القرن الخامس عشر وبعدما يقارب الـ ٢٥٠ سنة بعد هذا الحدث، تم إحصاء عدد الضحايا ليصل إلى أكثر من مليونين قتيل .

بدت هذه الأعداد المرتفعة من القتلي والتي تم تقبلها من كل من كان مؤرخاً لأحداث العراق والتي من الممكن أن لا تكون دقيقة لان سكان بغداد لم يكون تعدادهم أكثر من نصف مليون، وبالإضافة إلى ذلك، فان التعمق في المصادر يبين انه كان هناك جهد تشاوري للإبقاء على المجتمعات الشيعية والمسيحية واليهودية في بغداد وهم ليس بالعدد القليل، إن لم ينجو معظم السنة بسقوط المدينة ، وكان هنا عالم شيعي يدعى ابن طاوس في بغداد خلال الحصار وكتب فيما بعد انه لم يلاقي أي أذى على يد المغول ولا عائلته الممتدة باستثناء أخ واحد له، وأعطى المغول الأمان لان يغادر ابن طاوس وعائلته وأصدقائه وآلاف من الناس مدينة بغداد ،كما أشار مؤرخ آخر أن المغول لم يهاجموا قصوراً لثلاثة مسؤولين وبضمنهم الوزير، وشرح المؤرخ بار هيبروس و كتاب أمريكيون أن السكان المسيحيين جميعهم نجوا، وأخيراً تمكن مجموعة من التجار بان يحافظوا على حياتهم بدفع مبالغ لهولاكو .

وتمكن العديد من السنة بجانب المسيح و الشيعة والتجار أن يجدوا الحماية بسهولة وذلك من خلال الصداقات مع المغول أو بدفع رشوة لهم ، وتمكن آخرين من الاختباء خلال أيام الحصار و بقوا مختبئين بعد ذلك حتى زوال التهديد والخطر، ونعلم أيضاً بان العديد من السنة المتنفذين استطاعوا النجاة من سقوط بغداد وذلك من خلال خدمة المغول ومن بين هؤلاء نجل داوتدار .

أصبحت المدينة الآن بيد المغول وهولاكو لديه قرار مهم كان عليه اتخاذه وهو : ماذا سيكون مصير الخليفة فبعد استسلامه مع عائلته أقاموا في خيمة خارج المدينة تحت حراسة المغول، وكان هولاكو في ذلك الوقت مهتماً بكنوز الخليفة الموجودة في القصور وبدء بسلب تلك الكنوز سلباً نظامياً، ودخل هولاكو إلى مقر إقامة الخليفة في المدينة واستدعاه وقال له "انت المضيف ونحن الضيوف، إجلب إي شيء مناسب لنا ". فاتي الخليفة المذعور بمئات من القطع النفيسة وقدمها للقائد المغولي والذي بدوره وزعها على موظفيه، واستدار على الخليفة وأعطاه صينية من الذهب وأمره بان يأكلها ولكن المستعصم قال له أنها غير صالحة للأكل، فقال له هولاكو متسائلاً "إذاً لماذا تحتفظ بها ولا تعطها لجنودك؟ ولماذا لم تثبت تلك الأبواب الحديدية في رؤوس السهام وتأتي إلى ضفة النهر وبذلك كان لا يمكنني عبوره؟" فأجابه الخليفة " تلك إرادة الله وما يصيبك " فأجابه القائد المغولي " هو أيضاً إرادة الله".

وغادر هولاكو في العشرين من شباط بغداد بسبب رائحة الجثث المتعفنة و البنائيات المحترقة، وأخذ معه الخليفة وعائلته ووصلوا فيما بعد إلى قرية تسمى "وقف" وسعى هولاكو لأخذ المشورة إزاء ما يجب فعله في مصير الخليفة، إذ أن القائد المغولي كان ينوي الإبقاء عليه وتعيينه كحاكم شكلي، ولكن مستشاريه الشيعة نصحوه قائلين " إذا بقي الخليفة على قيد الحياة فستهب كل قوات المسلمين و من كل الأرجاء لتحريره ولن يتركوك على قيد الحياة".

ولقى الخليفة ونجده الأكبر وبعض من الحاضرين معه حتفهم في تلك الليلة، وفي اليوم التالي تم إرسال الأوامر إلى بغداد بإعدام ما تبقى من عائلة الخليفة. كانت طريقة إعدام الخليفة سراً غامضاً وحيكت الكثير من القصص حول تلك الحادثة، ولكن القصة المحتمل حدوثها هي أن الخليفة تم وضعه في كيس جلدي وظل يُركل حتى الموت لأن المغول كانوا يؤمنون بان إراقة دم ملكي على الأرض يجلب الحظ السيء ولهذا فان طريقة العقاب التي اتبعوها كانت مألوفة لتجنب أية مشكلة، وهناك رواية اخرى لماركو بولو وهي أن المغول اقفلوا على الخليفة باب برج مليء بكنوزه التي تضم الذهب واللؤلؤ وبقية الأحجار النفيسة، وقال له الحاكم المغولي " الآن يا خليفة اجعل تلك الكنوز طعاماً لك لأنك مولع بها ولن تحصل على شيء آخر غيرها وبعد أربعة أيام من تركه وحيداً في ذلك البرج مات الخليفة حيث انهكه الجوع والعطش.

واطلق هولاكو سراح الوزير في يوم وفاة الخليفة وجعله حاكماً للمدينة، وأرسله إلى بغداد لينظم مع موظفيه مهمة إعادة البناء للمدينة، كما ارسل القائد المغولي ثلاثة آلاف من الخيالة إلى المدينة ليدفنوا الموتى ويزيلوا جثث الحيوانات من الطرق و يعيدوا فتح الأسواق .

كانت إعادة بناء بغداد هي السبيل الوحيد لكسب قلوب وعقول الشعب العراقي، كما أمر القائد المغولي بلقاء كل رجال الدين الناجين لإصدار حكم في مسألة وهي فيما إذا كان من الأفضل أن يحكم الناس حاكم عادل وكافر أو يحكمهم حاكم غير عادل ومؤمن، وعلى الرغم من أن رجال الدين كانوا مترددين في اتخاذ القرار، واتفقوا في نهاية الأمر بان يصدروا فتوى يقولوا فيها بانهم يفضلون أن يكون الحاكم عادلاً حتى لو كان كافراً، فبالنسبة لهولاكو كانت تلك الفتوى جزءاً من الدعاية لأنها أعطته تبريراً لان يحكم العراق .

وعاد هولاكو إلى إيران في نيسان مستهلاً تحضيراته لغزو سوريا .واستطاع المغول إتمام سيطرتهم على العراق خلال أربعة أشهر تقريباً وذلك يعتبر وقت قياسي، حتى لو أن حصار بغداد استغرق ثلاثة أسابيع. تحدث المؤرخين دوماً عن أن ضعف المغول كان يكمن في صعوبة الحصول على المدن والقلاع، ولكن نجاحهم هنا و في السيطرة على حلب عام ١٢٦٠ وفي كثير من المناطق في روسيا وهنغاريا

وإيران وأواسط آسيا والصين ناقض ما تحدث عنه المؤرخون، واستطاع هولاء وبقيّة القادة استخدام أسلحة الحصار والقوات المساعدة بكفاءة عالية تعويضاً عن عدم تمكن خيولهم من تسلق الأسوار.

قد يدرك المرء بان قصة المغول لم تنتهي بطبيعة الحال بسقوط بغداد، فخلال سنتين ظهر تمرد في مناطق مثل تكريت والفلوجة والموصل وأصبحت تلك المناطق مراكز للمقاومة، وفي ذلك الوقت فشل المغول في جهودهم الرامية للسيطرة على سوريا وفي تلك الفترة كانوا في مواجهة حامية الوطيس مع المماليك و ما بدأه بغزوات بسيطة وسريعة انتهى بوقوعهم في مستنقع حرب طويلة الأمد استمرت لأكثر خمسين عاماً.

توضيح بعض الكلمات :

1. الوهق وهو حبل يرمى وفي آخره عروة تشد على الرقبة لامسك الخيول والماشية.
2. مقلاع وهي آلة حربية تستخدم لرمي الحجارة الكبيرة في العصور القديمة والوسطى.
3. النافثا هي احد منتجات النفط ويسمى البنزين الخام أي قبل معالجته كيميائياً.

رابط للبحث الاصيلي

[/http://www.medievalists.net/2013/08/20/how-to-invade-iraq-the-mongol-way](http://www.medievalists.net/2013/08/20/how-to-invade-iraq-the-mongol-way)

الترجمة

موقع شباب العراق للإحصاء والمسح

